الحُبُّ بَيْنَ الوَصْلِ وَ القَطِيعَةِ فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ مِنْ خِلَالِ شِعْرِ المُثَقِّبِ العَبْدِيِّ

Love between connection and estrangement in pre-Islamic poetry - Through the poems of Al-Mothakkab al-Abdi-

طالب دكتوراه / بقاقه علي.
الدكتور: بلقاسم رفرافي

قسم اللغة و الأدب العربي - جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر-
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها.

ali.begaga@univ-biskra.dz
belkacem.refrafi@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2021/04/25 تاريخ النشر: 2021/09/15

ملخص:

يُعْتَبَرُ (المُثَقِّبُ العَبْدِي) مِنْ أَهَمِّ الشُّعَرَاءِ الجَاهِلِيين الّذِينَ خَاضُوا فِي مَوْضُوعَاتِ الغَزَلِ وَ التَشْبِيبِ بِالمَحْبُوبَةِ ، إِذْ اِسْتَطَاعَ أَنْ يَتَجَاوَزَ تِلْكَ الصُورَةَ النَمَطِيَّة الّتِي كَانَتْ سَائِدَةً خِلاَلَ العَصْرِ الجَاهِلِي عَنْ المَحْبُوبَةِ ، وَ القَائِمَةِ عَلَى مُجَرَّدِ البُكَاءِ إِلَى حَدِّ الجُنُونِ ، أَوْ الفُحْشِ فِي الوَصْفِ ، فَأَبْدَعَ لَنَا صُورَةً جَدِيدَةً قَائِمَةً عَلَى مُعَامَلَةِ المَحْبُوبَةِ بِالعَدَالَة و بِالمِثْلِ ، دُونَ لِينٍ أَوْ ضَعْفٍ، فَإِنْ كَانَتْ وَفِيَّةً حُقَّ وَصْلُهَا وَ التَعَلُّق بِهَا، وَ إِنْ كَانَتْ مُخْلِفَةً لِلْوُعُودِ وَ قَاطِعَةً لِلْوِصَال كَانَ لِزَامًا هَجْرُهَا دُونَ أَسَفٍ ، وَ قَد حَاوَلْتُ فِي بَحْثِي هَذَا تَتَبُّع هَذَا التَصَوُّر الغَزَلِي المُمَيَّز لِلْمُثَقَّب وِفْقَ المَنْهَج الوَصْفِي التَّحْلِيلِي.

الكلمات المفتاحية: المُثَقِّب العَبْدِي؛ تَأْثِيرُ البِيئَة ؛ الحُبُّ ؛ الوِصَالُ ؛ القَطِيعَةُ ؛

Abstract:

Al-Mothakkab al-Abdi is considered one of the most well-known pre-islamic poets who tackled the theme of the beloved description. He overpassed that old prevailing image about the beloved, which depicts weeping due to the pain of separation or describes obscenitly the charms of her body. The poet created a new image in the description of the beloved, based on the reciprocal treatment . If she communicates with him, he keeps loving her, and vice versa. This topic is to be approached using the Descriptive Analytical Method.

key words: Al-Mothakkab al-Abdi; affecting of environment; love; connection; estrangement.

1-مقدّمة:

لاَ شَكَّ أَنَّ الشِعْرَ الجَاهِلِيَّ هُوَ التُرْجَمَانُ الصَّادِقُ لِكُلّ التَجَارِب الحَيَاتِيَّة لِلإِنْسَان العَرَبِيّ فِي ذَلِكَ الزَمَان ، وَ هُوَ شِعْرٌ زَاخِرٌ يُشَكِّلُ أَشْبَهَ بِلَوْحَةٍ فُسَيْفِسَائِيَّة ، تَخْتَزِلُ كُلَّ أَلْوَان حَيَاتِه الشُعُورِيَّة وَ الوِجْدَانِيَّة فِي أَحَضَان بِيئَة بَدَوِيَّة مُلْهِمَة ، وَ كَانَ لِلْمَرْأَةِ حُضُورٌ بَارِزٌ فِي شِعْرِ هَؤلاَءِ الشُعَرَاءِ الجَاهِلِيين فِي سِيَاقِ تَصْوِير مَشَاعِر الحُبّ وَ التَعَلُّقِ بِالمَحْبُوبَة .

وَ يُعْتَبر الشاعِرُ الجَاهِلي (المُثَقِّب العَبْدِي) وَاحِدًا مِن أُولَئك الشُعَراء الذِينَ أَبْدَعُو فِي تَصْوِير عَلاَقَته مَع المحْبُوبة ، و بَيَان صفَاتِها الخُلُقيّة و الخِلْقِيَّة ، و تَصْوِير لَحَظات الوِصَال و بَهْجَتِها و أَيَّام القَطِيعَة و الهُجْران وَ مَرَارَتِهَا ، و حَاوَلْتُ فِي هَذَا البَحْث أَنْ أُبْرِزَ طَبِيعَة تِلْكَ العَلاَقَة ، و أَوْجه الشَبَه بَيْنه و بَيْن مُعَاصِرِيه ، وَ رَكَّزْتُ عَلى وَجْه الاِخْتِلاف الذِي تَمَيّز بِه المُثَقِّب عَن غَيْرِه مِن الشُعَراء ، حَيثُ سَيَتَرَاءَ لَنَا أَنَّ (المُثَقَّب العَبْدِي) كَانَت لَهُ شخْصِية قَوِيَّة تَتَسِم بالرُجُولة و القِيَادِيَّة و رَفْضِ الخُضُوع و المذَلَّة فِي عَلاَقَته العَاطِفِيَّة ، كَمَا سَنَلاحِظ أَنَّ غَزَلَه تَغْلِب عَلَيه مَسْحَة العِفَّة و عَدَم الفُحْش فِي الوَصْف ... ، و غَيْرها مِن النَتَائج الّتِي فَصَّلْتُ فيها بالتَحْلِيل و التَدْقِيق فِي مَتْن البَحْث ، و اعْتَمَدتُ عَلَى المنْهَج الوَصْفي التَّحْلِيلي ، و حَاوَلْتُ الإجابَة عَلَى بَعْض الإِشْكَالاَت المُهِمَّة ، مثل : مَنْ هُو (المثَقِّب العَبْدِي)؟ و مَا هِي العَوَامِل المُؤَثِّرة فِي تَجْرِبَته الشِعْرِيَّة و الشُعُورِيَّة ؟ و كَيْفَ تَجَلَّت نَظْرته لمَوْضُوع المَرْأَة و الحُبّ الذِي شَغَل بَالَ الشُعَرَاء فِي العَصْر الجَاهِلِي ؟

2- المثقّب العبدي و سياقه الحضاري و الثقافي :

قَبْلَ أَنْ أَتَنَاوَلَ الرُؤْيَة الشِعْرِيَّة للشاعِر الجَاهِلِي (المثَقِّب العَبْدي) لموضُوعَات المَرْأَة و الحُبّ ، و أَيَّام الوِصَال و القَطِيعَة ، لاَ بُدَّ أَنْ أُشِير إلى شَخْصِيَته و هُوِيَته ، و كذَا أَهَمّ العَوَامل الحَضَارية و الثَقَافية المؤَثِّرة في تَكْوِين شَخْصِيته ، **" فَالإِنْسَان اِبْن بِيئتِه وَ عَوَائِدِه وَ مَأْلُوفِه ...** "[1] ، فَبِيئَة الشَّاعِرِ تَطْبَعُ سُلُوكَه وَ إِبْدَاعَه بِطَابِع خَاص و مُمَيّز ، خَاصَة ظُرُوفُ قَبِيلَتِه وَ نَمَط عَيْشِهَا وَ عَوَائِد أَهْلِهَا وَ نِحَلِهِم.

2-1- ترجمة مختصرة للمثقّب العبدي :

(المثقب العبدي) شاعر عربي جاهلي عاش في زمن الملك المشهور المسمى (عمرو بن هند) ، و قد ذكر ذلك الكاتب و المؤرّخ (جورجي زيدان) في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) حين قال : " **و كان في جملة الّذين كانوا يترددون على عمرو بن هند و يمدحونه...** "[2]، و (المثقّب العبدي) بكسر القاف يقول (ابن منظور) في مادة (ثَقَبَ) قال : " **و المُثُقِّبُ بِالكَسْرِ العَالِمُ الفَطِنُ ، وَ رَجُلٌ مُثقِب أَيْ نَافِذُ الرَأْي ...و هو لقب شاعر معروف من عبد القيس** "[3].

ولد (المثقب العبدي) في قبيلة بني عبد القيس العربية من ربيعة ، "**و هي القبيلة الكبيرة المتحدّرة من ربيعة العدنانية ، والتي تقدّمت مع بعض قبائل أخرى من ربيعة فنزلت عبد القيس في البحرين* وهجر* على الشاطيء الغربي من الخليج العربي ، فأجلت قبيلة إيّاد عنها**"[4]، و تذكر المصادر أن شاعرنا (المثقب العبدي) عاش حتى زمن (الملك النعمان بالمنذر) ، يقول الباحث (عبد الحميد المعيني) : " **و أنه عاش حتى زمن النعمان بن المنذر ، ومدحه في قصيدته الهائية** "[5] ، و قال كثير من المؤرخين أن (المثقب العبدي) توفي في 587 م أو 588 م ، بناءً على إدراكه زمن (النعمان بن المنذر)الذي " **بدأ حكمه عام 582م ، و استمرّ حتى 613م** "[6].

و ترك لنا ديوانا شعريا صغير الحجم نوعا ما إذا ما قُورن مع غيره من الشعراء الجاهليين كامريء القيس و عنترة ... إلخ ، إذ يحتوي ديوان (المثقّب العبدي) المنشور من طرف جامعة الدول العربية و بتحقيق الباحث المصري (حسن كامل الصيرفي) على سبع قصائد متوسطة الحجم و بعضا من المقطوعات الشعرية المختلف في نسبتها إلى المثقّب ، و قد كتب في أغراض شعرية كثيرة أهمها الغزل و الحب و شعر وصف الرحلة و الناقة و شعر الحكمة ، و مدح الملوك الكبار ... إلخ ، و سنسلط الضوء على شعره الغزلي و طريقة وصفه للمحبوبة ، و سأبدأ بذكر أثر قبيلته و بيئته الجاهلية في شعره الغزلي .

2-2- أثر محيطه الحضاري و الثقافي في شعره الغزلي :

لا شكّ أنّ (المثقّب العبدي) قد سار على نهج الشعراء الجاهليين في رسمه للغزل و التشبيب بالمحبوبة ، إذْ مال إلى افتتاح قصائده بالغزل و ذكر محاسن المحبوبة و التصريح بجمالها الأخّاذ ، مع ذكر التعلّق الشديد بها إلى حدّ الهيام ، و الاعتراف بألم الفراق و الهجر في حال البعد أو القطيعة .

و يعتبر الغزل من أكثر الموضوعات و الأغراض الشعرية انتشارا في البيئة العربية الجاهلية ، و يكتسي الغزل مكانة عظيمة في قلب الشّاعر العربي ، **" لأنّه متّصل بطبيعة الإنسان وبتجاربه الذّاتية خاصة و أنّ الحبّ يحرّك كلّ القلوب ، و الشعراء دون غيرهم يصوّرون هذا الحبّ بعاطفة صادقة فيتدفّق على ألسنتهم من وجدان مرهف "** [7] ، و هو أكثر غرض نظم فيه (المثقّب العبدي) إضافة لغرض وصف الرحلة.

و لا شكّ أنّ البيئة العربية المحافظة التي تربّى أبنائها على الخِلاَل و الأخلاق الكريمة كالكرم و نصرة الجار و الحشمة ألزمت كثيرا من الشعراء العرب الجاهليين على التعفّف في ألفاظهم و الحشمة في غزلهم، و هو الأمر نفسه في غزليات شاعرنا (المثقّب العبدي) ، فهو ذو غزل عفيف يتصف بالحشمة ، و يهدف إلى إظهار جمال المحبوبة و وصف محاسنها ، و ذكر ما تركته من أثر في قلب شاعرنا ، مع تصوير ألم الفراق و الهجر ، حيث **" تشيع فيه حرارة العاطفة ، و تشعّ منه الأشواق ، ويصوّر خلجات النفس ، و فرحة اللقاء ، و آلام الفراق ، و لا يحفل بجمال المحبوبة الجسدي بقدر ما يحفل بجاذبيتها و سحر نظرتها و قوّة أسرها "** [8] ، لذلك لن تجد (للمثقّب العبدي) بيتا شعريا واحدا يفحش فيه القول في وصف المحبوبة ، أو سرد تفاصيل و جزئيات جسدها و عورتها ، بل كان يتعفّف تعفّف العربي الأصيل الشهم ، الذي تشبّع من بيئته قيما و أخلاقا كريمة ، كيف لا و هو من أشراف قومه و سادتهم ، و السيد عند العرب قديما يجب أن يكون حكيما و رزينا ، إذ كان (المثقّب العبدي) يمثّل قومه في القضايا المهمّة و عقود الصلح و معاهدات السلام ، **"فالمثقّب سياسي بارع ، وسفير ناجح ،استغلّ مهارته السياسية في إحلال السلام وإنهاء الخصام بين المناذرة والعبديين "** [9] ، و لعلّ لهذه المكانة السياسية أثر بالغ في تكوين شخصية (المثقّب) الحكيمة و الرزينة التي تأبى الخناعة و الفحش.

هذا من جهة و من جهة أخرى تأثرت شخصية (المثقب) بعقلية العرب الجاهليين الذين يرفضون الذلّ و الخضوع ، و قد تجلّى ذلك ليس فقط في الحروب و السياسة بل حتّى في أمور الحبّ و الغزل ، إذ رفض (المثقّب العبدي) أن يذلّ لمحبوبته التي تنوي هجره ، فالوصل بالوصل ، و الهجر بالهجر ، حيث يقول في نونيته :

فَإِنّي لَوْ تُخَالِفِنُي شِمَالِي * خِلاَفَك مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي**

إِذَا لَقَطَعْتُهَا وَ لَقُلْتُ بِينِي * كَذَلِكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِينِي** [10]

و (المثقّب) لا يعترف بنظرية العشاق التي تقول بأن المحبّ أسير محبوبته ، على حدّ قول القائل :

أَجِدُ المَلاَمَة فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً * حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَمُ**[11]

و هو في ذلك قد سار على نهج العرب القدامى الأشدّاء ، الذين لا يلينون و لا يضعفون مهما كانت الظروف ، فالرّجل العربي بحكم قساوة الطبيعة و كثرة الحروب في بيئتهم المضطربة ، كان لزاما عليه أن يكون حازما و شديدا و محتاطا ، لذلك نجد (المثقّب العبدي) لم يضعف حتّى في حياته العاطفية ، و كلّ ذلك راجع إلى تأثّره بمحيطه و نمط عيش قبيلته التي يغلب على حياة أفرادها كثرة الحلّ و الترحال مع كثرة الحروب .

3. جدليّة الغزل و الحبّ في شعر المثقّب العبدي :

إنّ حقيقة الغزل عند الشعراء العرب هي " **التغنّي بالجمال ، وإظهار الشوق إلى المحبوبة والشكوى من فراقها ، وهو فنّ شعري يهدف إلى التشبّث بالحبيبة و وصفها عبر إبراز محاسنها و مفاتنها** "[12]، و لم يثبت الغزل عند (المثقب العبدي) على مسار واحد ، بل اضطرب بين حالتين ، حالة الوصل و حالة القطيعة ، و الظروف هي التي تملي على المثقّب طريقة غزله ، كما سنلاحظ من خلال أشعاره :

3-1- غزل الوصال عند المثقّب العبدي :

و أعني بالوصال هنا أنّ الشاعر في علاقة وئام و تفاهم مع المحبوبة ، فهو متعلّق بها ، و في هذه الحالة تجده يصف محاسن المحبوبة ، و يظهر إعجابه الشديد ، و هو كثير في شعره ، مثل ما نجده في داليته و هي أولى قصائده في الديوان :

هَل عِندَ غانٍ لِفُؤادٍ صَدِ * مِن نَهلَةٍ في اليَومِ أَو في غَدِ**[13]

فالشاعر ابتدأ قصيدته باستفهام بلاغي غرضه إظهار الضعف للمحبوبة التي سلبت عقله و أسرت قلبه ، و وصف محبوبته بوصف (غان) و قصد بها غانية ، و الغانية المرأة الجميلة العالية القدر و الصعبة المنال ، يقول (ابن منظور) : " **وَ الغَانِيَةُ الَّتِي غَنِيَت بِحُسْنِهَا وَ جَمَالِهَا عَنِ الحُلِيِّ ، وَ قِيلَ هِيَ الَّتِي تُطْلَبْ وَ لاَ تَطْلُب ...** "[14]، لذلك نجد الشاعر في البيت السابق يتقرّب إلى محبوبته في شيء من الخضوع و الانقياد ، و يطلب منها أن تكرمه و تجود عليه بشربة ماء من وصالها و محبّتها .

و مثل ذلك ما نجده في قصيدته النونية المشهورة إذ يفتتحها بأمر بلاغي غرضه التقرب للمحبوبة (فاطمة) يسألها من لذيذ الوصال و القرب :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِعِينِي * وَ مَنْعُكِ مَا سَأَلْتُكِ أَنْ تَبِينِي**[15]

و (المثقّب) يأسره جمال محبوبته حين يراها على الهودج مع القوافل ، يقول :

وَ هُنَّ عَلَى الرَّجَائِزِ وَاكِنَاتٌ * قَواتِلُ كُلِّ أَشْجَعَ مُسْتَكِينِ**[16]

فهو يعترف بجمالها الجذّاب و الفتّان ، ثمّ يستطرد في وصف ذلك الجمال :

كَغِزْلاَنٍ خَذَلْنَ بِذَاتِ ضَالٍ * تَنُوشُ الدَانِيَاتِ مِنَ الغُصُونِ**[17]

فمحبوبته جميلة جمال الغزال ، و هذا الجمال يفتك بالناظرين إليه كما تفتك الغزلان بالغصون المتدنية في الأشجار حين تأكلها ، ثمّ يستطرد في وصف محبوبته التي تطلّ من غطاء الهودج التي تأسر قلوب ناظريها :

ظَهَرْنَ بِكَلَّةٍ وَ سَدَلْنَ أُخْرَى * وَ ثَقَّبْنَ الوَصَاوِصَ لِلْعُيُونِ**[18]

ثمّ نجد (المثقّب) يفصّل في مفاتن المحبوبة بشيء من الاحتشام ، إذ يذكر تلك المحاسن بلفظ عام و وصف مجمل لا يخدش معه الحياء ، يقول :

أَرَيْنَ مَحَاسِنًا وَ كَنَنَّ أُخْرَى * مِنَ الدِيبَاجِ وَ البَشَرِ المَصُونِ**[19]

ثمّ يفصّل في حليّ المحبوبة الّذي يزيّن صدرها ، فيظهرها كالأميرات العاليات المقام و الشأن في زينتها و أناقتها :

وَ مِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبٍ * كَلَوْنِ العَاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونٍ**[20]

و ما يؤكد تعلّق الشاعر بمحبوبته تلك الدقّة في الوصف ، فهو يتتبّع جزئيات محبوبته الّتي تعكس أناقتها و جمالها و سحرها في تأدّب و احترام ، دون كسر حاجز الحشمة كما أسبقت ، فها هو يصف ذوائب شعرها المتناسقة :

وَ هُنَّ عَلَى الظِّلاَمِ مُطَلَّبَاتٌ * طَوِيلاَتُ الذَّوَائِبِ وَ القُرُونِ**[21]

فهو يقول أنّ المحبوبة مطلوبة على ظلمها للحبيب ، فشعرها جميل خاصة ذوائبها الطويلة التي تسلب العقول .

و كثيرا ما يظهر في غزله تتبع قوافل المحبوبة التي يظهر عليها أنها غنيّة ، فهي تملك نوقا كثيرة و تملك جواري و خدم يخدمونها ، فها هو يصف محبوبته (ليلى) و هي في الهودج على ظهر الناقة ، و يصف الهودج و حركة النوق :

إِنْ رَأَى ظُعْنًا لِلَيْلَى غُدْوَةً * قَدْ عَلاَ الحَزْمَاءَ مِنْهُنَّ أُسَر**

قَدْ عَلَتْ مِنْ فَوْقِهَا أَنْمَاطُهَا * وَ عَلى الأَحْدَاجِ رَقْمٌ كَالشَّقِر**[22]

فظعن و جواري محبوبته تحت مراقبة الشاعر خاصة إن علون رباوة ما، و يراقب أيضا زركشة الثياب و القماش المزخرف الذي يعلو الهودج و يغطّيه ، و مراقبة قوافل المحبوبة يبرز التعلّق الشديد ، كما نلاحظ في النونية أيضا في قوله :

لِمَنْ ظُعُنٌ تُطَالِعُ مِنْ ضُبَيْبٍ * فَمَا خَرَجَتْ مِنَ الوَادِي لِحِينِ**

تَبَصَّرْ هَلْ تَرَى ظُعُنًا عِجَالاً * بِجَنْبِ الصَّحْصَحَانِ إِلَى الْوَجِينِ**
وَ هُنَّ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلْجًا * كَأَنَّ حُدُوجَهُنَّ عَلَى سَفِينِ**[23]

فيترقّب (المثقّب العبدي) بعين العاشق حتّى حركة النوق و سرعتها و معها جواري المحبوبة ، و طريقة مرورها على الأماكن المختلفة كالصحصحين و الوجين و فلج ، ثم يرسم لهذه القوافل صورة تشبيهيّة جميلة و فاتنة ، إذ يشبّه حدوجهنّ بسفن مبحرة ، تعلو الأمواج و ترتفع و تنخفظ معها .

3-2- غزل القطيعة عند المثقّب العبدي:

أعني به ذلك الغزل الذي يختزن فيه الشاعر عواطف الأسى و الحزن بسبب الهجران و القطيعة التي تكون بينه و بين محبوبته لعدّة اعتبارات ، و سأحاول أن أتتبّع غزل القطيعة في شعر المثقّب العبدي و علاقته بالبيئة الجاهلية .

إنّ أوّل ما يصادفنا من غزل القطيعة نجده في مقدّمة قصيدته الدالية ، و هي القصيدة الأولى في الديوان ، و ذلك حين يطلب الشاعر من محبوبته أن تسقيه من شربة الوصال التي حرم منها ، ثمّ يؤكّد لها أنها إن قرّرت قطع تلك الشربة عنه فسيعتمد على نفسه في نيل تلك الشربة من الوصال ، و ذلك ليبرز للمحبوبة تلك النزعة الرجولية المعروفة عنه ، و التي تعكس شعور العزّة و عدم الخضوع و التذلّل ، إذ يقول :

يَجزي بِها الجازونَ عَنّي وَ لَو * يُمنَعُ شُربي لَسَقَتني يَدي**[24]

ثم يفصّل (المثقّب العبدي) في ترفّع محبوبته عن طريق رفع قيمة مهرها ، الذي أصبح غاليا على كلّ الخطّاب ، و هي بذلك تفرض شروط تعجيزيّة ، لكي تجعل من التقرّب إليها أمرا مستحيلا ، يقول في ذلك :

قالَت أَلا لا يُشتَرى ذاكُمُ * إلاّ بِما شِئنا وَ لَم يُوجَدِ**
إِلّا بِبَدرَى ذَهَبٍ خالِصٍ * كُلُّ صَباحٍ آخِرَ المُسنَدِ**
مِن مالِ مَن يَجبي وَ يُجبى لَهُ * سَبعونَ قِنطاراً مِنَ العَسجَدِ**
أَو مِائَةٌ تُجْعَلُ أَولادُها * لَغواً وَ عُرضُ المَائَةِ الجَلمَدُ**[25]

فمحبوبة الشاعر تصرّح لشاعرنا أنّ مهرها لن يكون إلاّ كما تريد هي ، ثمّ تؤكّد له أنه غير موجود و لا يستطيع أحد تحصيله ، ثمّ تفصّل في قيمته بشيء من التعجيز و الإسراف ، فهو كيس بَدْرَى مليء بالذّهب الخالص ، يُوَفَّى لَهَا كُلَّ صَبَاح ، ثمّ حددت قيمة الذهب بسبعين

قنطار أو مائة ناقة مع صغارها دون احتساب الصغار... إلخ ، و المحبوبة بمهرها التعجيزي كأنها تعلن القطيعة .

و ها هو (المثقّب العبدي) في قصيدته الرائية يعترف بحزنه الشديد بسبب القطيعة الموجودة بينه و بين المحبوبة ، فالدموع تنهمر من عينيه دون أن يملك قدرة على حبسها ، يقول :

هَل لِهَذا القَلبِ سَمعٌ أَو بَصَر * أَو تَناهٍ عَن حَبيبٍ يُذَكَر**
أَو لِدَمعٍ عَن سَفاهٍ نِهيَةٌ * تَمتَري مِنهُ أَسابِيَّ الدِرَر**
مُرمَعِلّاتٌ كَسِمطَيّ لُؤلُؤٍ * خُذِلَت أَخراتُهُ فيهِ مَغَر**[26]

ففي هذه القصيدة يعترف (المثقّب العبدي) بتأثير فراق المحبوبة ، فدموعه لم يستطع حبسها ، إذْ سالت دون انقطاع حتّى سال معها الدم ، و هنا يظهر على (المثقّب)شيء من الضعف أمام الفراق و الهجران ، و هذا يعكس صدق التعلّق ، فأخلاق الشاعر تأبى عليه الكذب أو النفاق و التظاهر ، لذلك فالصدق هو خلقه الذي لا يحيد عنه أبدا ، ورغم هذا الخلق و هذا الضعف -إن صحّ القول- فإنّ المثقّب العبدي يرفض المذلّة و الهوان أو الخضوع للمحبوبة مهما كان تعلّقه بها كبيرا ، فهو يستطيع الدخول في صراع مع قلبه و مع محبوبته ، و هذا ما نجده في قصيدته النونية المشهورة حين يبارز محبوبته التي هجرته و يخاصمها و يجاهرها بالعداوة و النفور ، و يذكّرها بمبادئه و قيمه الأساسية القائمة على العدالة و المعاملة بالمثل ، إذ يقول :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتِعِينِي * وَ مَنْعُكِ مَا سَأَلْتُ كَأَنْ تَبِينِي**
فَلاَ تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ * تَمُرُّ بِهَا رِيَاحُ الصَّيْفِ دُونِي**
فَإِنِّي لَوْ تُخَالِفُنِي شِمَالِي * خِلاَفَكِ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي**[27]

فالشاعر يسأل محبوبته فاطمة أن تمتعه بالوصال و الودّ ، و يؤكّد أنّ منعها ذلك عنه هو بَيْنٌ و بعد في نظر المثقّب ، و خيانة لعهد الصداقة و المحبّة الموجودة بينهما ، لذلك يحذّرها من الكذب في المواعيد ، و يذكّرها أنّه لا يرحم من يخذله و يخونه ، فلو تخونه شماله لقطعها عن يمينه ، و هي كناية عن الصلابة و الشدّة في رفض الذلّ و الاستكانة مع كلّ الناس و لو كان ذلك مع أعزّ إنسان إلى قلبه ألا و هو محبوبته.

ثمّ يؤكّد لمحبوبته قاعدته الثابته في الحياة ، و هي أنّه عزيز النفس ، لا يقبل أن يذلّ لأيّ إنسان مهما كان شأنه ، حتى و لو كان محبوبته ، و هو إنسان يتعامل بالمثل ، فالإحسان بالإحسان و الإساءة بالإساءة ،و هو المبدأ الذي لا يحيد عنه قيد أنملة ، لأنهّ مبدأ و طبع تطبّع به من بيئته العربية ، إذ يقول :

إِذَا لَقَطَعْتُهَا وَ لَقُلْتُ بِينِي * كَذَلِكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِينِي**[28]

4-خاتمة :

إنَّ (المثَقّب العَبْدِي) وَاحِدٌ مِن الشُعَراء العَرَب الجَاهِلِيين الّذِين اِسْتَطاعُوا بِشِعْرِهم أَنْ يُصَوّرُوا لَنَا وَاقِعَ الحَيَاة العَاطِفِيّة للعَرَب في الجَاهِلِيّة ، و اِنْطِلاقًا مِمّا تَقَدَّم طَرْحُه أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْرج بمجموعة من النتائج المهمّة و هي :

- تَأثّرَ (المثقّب العبدي) في تشكيله الشعري بواقع بيئته العربية الصحراوية القاسية ، و بواقع قبيلته عبد القيس ، التي مالت إلى كثرة الرحلة و الحروب ، فتكوّنت لدى شاعرنا شخصيّة رجل صلب و قوي ، يثق في نفسه و لا يضعف .
- تبدو نظرة (المثقّب العبدي) للحياة عموما و للمرأة خصوصا نظرة حكيمة و رزينة ، فهو يتعامل بمنطقية و عقلانية قائمة على قاعدة الحياة أخذٌ و عطاءٌ .
- (المثقّب العبدي) كغيره من الشعراء الجاهليين اهتمّ بالمحبوبة و تحدّث عنها كثيرا في أشعاره ، و تغزّل بها ، فوصف محاسنها و جمالها ، و أبدع في تصوير زينتها و حليّها النادر ، كما تفنّن في تشبيهها بمظاهر الجمال الموجودة فيما يراه في بيئته من مخلوقات كالغزال و الطير و البقر ... وغيرهم.
- (المثقّب العبدي) يتميّز في غزلياته بميزة فريدة لا نكاد نجدها عند غيره من الشعراء الجاهليين ، و هي أنّه ذو أنفة و عزّة نفس في علاقته بالمحبوبة ، بحيث إذا رأى من المحبوبة قطيعة أو إخلاف وعد ، يقطع علاقته بالمحبوبة مباشرة دون أسف ، فهو يرفض الخيانة و إخلاف الوعود و لو من أقرب النّاس إليه ، كما يرفض أن يكون شيئا ثانويا أو تافها في حياة أيّ كان .
- إنّ (المثقّب العبدي) رمز للرجل العربي الشهم و المتعفّف ، الذي يأبى و يرفض الخناعة و الخلاعة و الفحش في الكلام في أثناء وصفه للمحبوبة ، لذا تجده يصف محاسن المحبوبة بعبارات عامة و مجملة ، أو يركّز على وصف الزينة و الحليّ ... و غيره .

5-الإحالات و الهوامش :

[1] - عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، تعليق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 2002م ، ص:251.

[2] - جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ،صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ،ط 2007م، ج1 ، ص:276.

[3] - جمال الدين محمد ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1300هـ ، مج 11 ، مادة (ش ك ل) ، ص: 240.

[4] - المثقّب العبدي : ديوان المثقب العبدي ، شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي ،جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات)،ط 1971م ، ص : 11 .

[5] - عبد الحميد المعيني :شعراء عبد القيس وشعرهم (العصر الجاهلي)،مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين ، القاهرة ، مصر ، ط1 ، 2002م ، ص : 264.

[6] - المرجع نفسه ، ص ، 264 .

[7] - سراج الدين محمّد ، الغزل في الشعر العربي ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2000 م ، ص ، 06.

[8] - أحمد محمّد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ،مصر ، ط1 ، 1950م ، ص ، 151 و 152 .

[9] - المثقب العبدي ، الديوان ، ص ، 267 .

[10] - المصدر نفسه ، ص ، 139 .

[11] - محمّد ابن قيّم الجوزية ، روضة المحبّين و نزهة المشتاقين ، تحقيق ، أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،ط3 ، 2003م ، ص ، 52 .

[12] - سامي يوسف أبو زيد و منذر ذيب كفافي ، الأدب الجاهلي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2011م ، ص ، 98.

[13] - المثقّب العبدي ، المصدر السابق ، ص ، 10 .

[14] - ابن منظور ، لسان العرب ، ج 15 ، ص ، 138 .

[15] - المثقّب العبدي ، المصدر السابق ، ص ، 136 .

[16] - المصدر نفسه ، ص ، 154 .

[17] - نفسه ، 154 .

[18] - نفسه ، 156 .

[19] - نفسه ، ص ، 158 .

[20] - نفسه ، ص ، 159 .

[21] - نفسه ، ص ، 160 .

[22] - نفسه ، ص ، 64 و 65 .

[23] - نفسه ، ص ، 140 إلى 144 .

[24] - نفسه ، ص ، 11.

[25] - نفسه ، ص ، من 12 إلى 15.

[26] - نفسه ، ص ، 62 و 63 .

[27] - نفسه ، ص ، من 136 إلى 139 .

[28] - نفسه ، ص ، 141 .

6-قائمة المصادر و المراجع :

-المصدر:

- المثقّب العبدي : ديوان المثقب العبدي ، شرح وتحقيق : حسن كامل الصيرفي ،جامعة الدول العربية (معهد المخطوطات)،القاهرة ، مصر ، ط 1971م.

-المراجع:

1- أحمد محمّد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ،مصر ، ط1 ، 1950م .

2- جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ،صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ، ج1 ،ط 2007م.

3-سامي يوسف أبو زيد و منذر ذيب كفافي ، الأدب الجاهلي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان ، الأردن ، ط1 ، 2011م .

4- سراج الدين محمّد ، الغزل في الشعر العربي ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ، 2000 م .

5- محمّد ابن قيّم الجوزية ، روضة المحبّين و نزهة المشتاقين ، تحقيق ، أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ،ط3 ، 2003م .

6- عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، تعليق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، دمشق ، سوريا ، ط 1 ، 2002م.

- المعاجم اللغوية :

- جمال الدين محمد ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1300هـ.